الفصل الثاني

النفائس

تعريف النفائس — التقدم الصناعيّ ينزل بكثير من الأشياء التي كانت تعد نفائس الى منزلة المبتذلات الشائعة — الأوهام الدائرة حول النفائس — ابطال النفائس يضيق مجال التقدّم الاجتماعيّ

تعريف النفائس

أوّلُ أمرٍ يَصرفُ إليهِ الإنسانُ فُضولَ قوّتِهِ المنتِجةِ ، إنّما هوَ استزادةُ ما يَستنفِدُهُ وما يَستمتِعُ بهِ ، خُصوصاً إذا كان من النفائسِ . وعلى قَدَرِ ما يتحضَّرُ المجتمعُ تنتشِرُ النفائسُ بين طبقاتِ الناس

على أنَّ للنفائسِ أعداءً متعدّدين : لأنَّ سَواداً عظيماً من الخَلْقِ يَنظُرونَ إليها نَظَرَهُم إلى الإفراطِ ، أو إلى الخَطيئةِ ، أو إلى التَّبجُّحِ ، متوَهِّمينَ أنها إذا زالت أصبحَ العالَمُونَ أنعَمَ بالاً وأرقى خُلُقاً ، ظانّينَ أن الكماليّ الذى يُصيبُهُ فريقٌ من القومِ انّما يكونُ سَلَباً من الضروريِّ للآخرينَ

أَقاويلُ إِن قامت لها قائمةٌ من الجهةِ الخُلُقيّةِ لم تَقعْ على الصِّحّةِ من سائرِ الجهاتِ

فَلْنبحثْ أوّلاً في تعريفِ النفائسِ، وإِنهُ لَمطلَبٌ شاقٌّ على الباحثين

تَصفَّحْ مُعْجَمَ (لِتْرِه[1]) تجدْ فيهِ هذا البيانَ: «النَّفيسُ هو الشائِقُ من الكِساءِ ومن مائدةِ الطَّعامِ ومن الرِّياشِ، والوَفرةُ من الأَشياءِ ذاتِ الرَّوْنَقِ والرَّوْعةِ»

تعريفٌ مُستَرْخٍ يَفي بِما يتصوَّرُهُ بعضُ الناس، ولكنهُ أضيَقُ من أن يُحيطَ بالمعنى المتداوَلِ الشائعِ بين العامّةِ

ولعلَّ الأَصحَّ أن يُقالَ إنَّ الاستنفاسَ هوَ اتِّخاذُ شيءٍ كماليٍّ يتجاوَزُ ما يَعُدُّهُ السوادُ الأَعظمُ من سكانِ الإِقليمِ ضرورياً، لا للمعاشِ وَحْدَهُ بل لِزِينةِ الحياةِ وأَدَبِها

فالنفائسُ إِذاً أشياءُ مُتَنوّعةٌ في الغايةِ مُتَنقِّلةٌ بلا انقطاعٍ تتباعَدُ مَراميها بِقَدَرِ ما يُثْرِي المجتمعُ ويَتَنَعَّمُ

---

(١) (Emile Littré) لغويٌّ وفيلسوف فرنسيٌّ اشتهر بمعجمه المعروف باسمه (١٨٠١ — ١٨٨١)

لَوْ أصابَ أجنبيٌّ مِن الذينَ غزَوا الأمبراطوريَّةَ الرُّومانيَّةَ ، أثاثَ بَيْتٍ من بُيوتِ العامَّةِ المُتيَسِّرينَ ، أو العمالِ المُتقِنينَ ، فى هذه الأيَّامِ ، لاستنفسَ كلَّ شىءٍ فيهِ : من تُكآتٍ[1] زهيدةِ الأثمانِ لكنَّها مَكسُوَّةٌ ، ومن بُسُطٍ لِبْدِيَّةٍ[2] ، ومن أستارِ نوافِذَ ، ومن وَرَقٍ مُزَوَّقٍ تُغَشَّى بهِ الجُدْرانُ ، ومن مَرآةٍ ، ومن قِصاعٍ متنوِّعةٍ ، ومن أقْمِصةٍ ، ومن مناديلَ ، ومن أربطةِ عُنُقٍ ، ومن جَوارِبَ ؛ ولَمَا اعتقدَ أنَّ واحداً من تلكَ الأشياءِ المستَجدَّةِ عليهِ ضروريٌّ للمعيشةِ ، ولا مِمَّا تستلزِمُهُ زينتُها أو أدَبُها

لو نُقِلَ أحدُ الرُّعاةِ فى هذا العصرِ من جبالِ (السيڤين) بفرنسا إلى مسكنٍ غنيٍّ دَخلُهُ عشرةُ آلافِ فرنكٍ ومعيشتُهُ على قدرِ دَخلِهِ ، لَوَجَدَ أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ يُراكِمُ حوالَيْهِ الأشياءَ غيرَ النافِعةِ والتَّوافِهَ الغاليةَ الأثمانِ التى لا يُصابُ منها إلَّا مَتاعٌ مكذوبٌ

---

(١) تكآت جمع تُكأَة : هى ما يتكأ عليهِ وقد استعيرت لتسمية « الفوتيل » (٢) أى من اللبد وهو الذى تعرفه العامة باللباد

فالتصوُّرُ القائمةُ عليهِ النفائسُ يتغيَّرُ ويتنوَّعُ تبعاً للديارِ والآناءِ والطبقاتِ الاجتماعيَّةِ ؛ وكلُّ واحدةٍ مِن هذهِ الطبقاتِ تَعُدُّ فى النفائسِ ما لا تُمكِّنُها حالتُها من الحصولِ عليهِ ، فى حينِ أنَّ الطبقةَ التى تَفُوقُها ثروةً ، آخذةٌ منهُ بالحظِّ الذى تُريدُهُ

التقدمُ الصناعيُّ ينزِلُ بكثيرٍ من الأشياءِ التى كانت تعدُّ نفائسَ إلى منزلةِ المبتذلاتِ الشائعةِ

إذا عظُمَ التقدُّمُ الصناعيُّ وعمَّ اليَسارُ فهُما يَرُدَّانِ إلى الاستعمالِ الشائعِ ، ما كان معدوداً من أخصِّ النفائسِ

ولقد كان من النفائسِ فى بابِ الغِذاءِ : السكَّرُ والأفاويهُ والقهوةُ والخمرُ فى الأرجاءِ التى تَعْصِرُها ؛ وكانَ منها فى بابِ المُقتَنَياتِ : زُجاجُ النَّوافِذِ ، وبَعْدَهُ المرآى إلى عهدٍ عهيدٍ ، وسُجوفُ الكُوَى (١) ، وصُنُوفُ النَّمارِقِ (٢) ، وساعةُ الجيبِ

---

(١) سجوف الكوى : أستار النوافذ (٢) النمارق جمع نمرُق : وهو البساط

وساعةُ التَّعْليقِ قبلَ انحدارِ ثَمَنِها إلى أربعينَ أو خمسينَ فرنكاً ثمَّ الى أربعةٍ أو خمسةٍ من الفرنكاتِ ؛ وكانَ منها فى بابِ الكِساء : الأقْمِصةُ والجوارِبُ والنِّعالُ والمناديلُ والأوْشِحةُ [١] والمخرَّماتُ ؛ وكانَ منها فى بابِ السكنى : انفصالُ الحُواطَةِ [٢] عن المطبخِ ، واستقلالُ رَذهةِ [٣] الضُّيوفِ عن غرفةِ الطعامِ ، وافتراقُ حُجْرَةِ الزِّينةِ عن مَقْصورةِ [٤] النَّوْمِ ، وكذاكَ الحمَّامُ ، والمِرحاضُ المجلوبُ اليهِ الماءُ المتوافِرُ فيهِ النُّورُ والهواءُ

كلٌّ مِن أولئك كانَ يُظَنُّ وراءَ الحاجةِ ولا يزالُ أقوامٌ على هذا الرأى فى تلك الأشياءِ

فغَايَاتُ النفائس تتباعدُ بلاَ انقطاعٍ ؛ وكلُّ مُستنفَسٍ

---

(١) الأوشحة جمع وشاح : وهو قِدَّةٌ طويلة قليلة العرض من النسيج يغلب أن يتقلدها اللابس على الكتف اليسرى آخذةً من العنق إلى ما تحت الإبط الأيمن (٢) الحواطة : غرفة الطعام

(٣) ردهة الضيوف : الغرفة التى يسمونها « الصالون »

(٤) الحجرة والمقصورة : اسمان لنوعين من الغرف

بالأمسِ آيلٌ فى الغدِ الى الابتذالِ ، أو صائرٌ بعدَ العُلوِّ الى دُنُوِّ المَنالِ

فيما للنفائسِ من الشأنِ الاقتصاديِّ

لَسْنا مِمَّنْ يكرَهُون النفائسَ لاعتقادِنا أنَّها من اكبرِ بواعثِ النَّجاحِ البشريِّ ، وأنَّ الإنسانيَّةَ مُمْتَنَّةٌ لها بكُلِّ ما نتَّخِذُهُ اليومَ حِلْيةً للحياةِ ، فَضْلاً عن مُعظمِ الإصلاحات التى اتَّسقت مَعَها أسبابُ الصِّحَّةِ

إنَّما النفائسُ أُمَّاتُ الفُنونِ

ولَولاها لَمَا قامت قائمةٌ للنَّحْتِ والتَّصويرِ والموسيقى ، ولا لِتَوابِعها العامِّيَّةِ من النُّقوشِ والمطبوعاتِ الحجريَّةِ

لا جَرَمَ أنَّ مِن الناسِ مَنْ يُسيءُ استعمالَ النفائس ويَتَبَجَّحُ بِها : أولئكَ هُم الذينَ يُحاوِلونَ أن يَبْهَروا الأبصارَ ويُذِلُّوا الجمهورَ

لَكنَّ الأدَبَ الخُلقيَّ يَقضى قَضاءَهُ عليهم وعلى تلك

القِحَةِ الأثيمةِ التى تتظاهرُ بها الثروةُ على ما يُحيطُ بها من الفاقةِ

ولا شىءَ أدعى إلى نَفْرَةِ الناس ، من الاستنفاسِ الذى إنَّما يُرادُ بهِ التَّباهى ، كما يفعلُ الذين يستكثرون من التَّبَعِ والسَّفَاسيرِ (١) لِغَيْرِ طائلٍ

غيرَ أنَّ هذه الفِئةَ من المُعْجَبين بِنَفائسهم تَنْقُصُ شيئاً شيئاً ؛ ويَتناقَصُ معَها بالتدرُّجِ ذلك السَّفَهُ الذى كانَ عليهِ الرُّومانُ ، أيَّامَ انحطاطِهم ، فى تبديدِ الأرزاقِ ، كما تتناقَصُ معَهُ سائرُ أنواعِ المُفاخَرَةِ التى يُنْزِلُ الرأيُ العامُّ قصاصَهُ فى الذين يَرتكِبُونَها من ذوى النِّعمةِ الحادثةِ

ولقد أصبحَ السوادُ الأعظمُ من أربابِ الجاهِ على نقيضِ هذه الخُطَّةِ : فَهُم لا يعرِضون نفائسَهم فى الطُّرقاتِ وبين الجماهيرِ ، بل يُرْخونَ عليها الأستارَ فيَحبِسونَها داخلَ بُيوتِهم ويَحتشمون أن يتظاهَروا بها تَظاهُراً جارِحاً للذين لا يستطيعون الحصولَ على ما يُشاكِلُها

---

(١) السفاسير : هم التبع والأعوان والأجراء

فإذا استُعْمِلَتْ النفائسُ بِمثْلِ هذه الكياسةِ وذاك التَّلْطيفِ لم يَسَعِ الحكيمَ العادِلَ أن يَحكُمَ بِزَوالِها

الأوهامُ الدائرةُ حولَ النفائس

يتوهَّمُ أُناسٌ أنَّ النفائسَ لو لم تُوجَدْ لَظَفِرَ المجتمعُ بكثيرٍ مِمَّا عَدِمَهُ من الأشياءِ النافعةِ ، ويقولونَ فى بَيانِ ذلك ، إنهُ لو لم يكُنْ فى مُجتمَعٍ نفائسُ بمليارٍ من الفرنكاتِ لأصابَ المجتمعُ بِذلك المليارِ مَزيداً من القمحِ والبطاطا والأَلْبِسةِ الشائعةِ

لَكنَّهُ يلوحُ لنا أنَّ هذا القَوْلَ بِمَعْزِلٍ عن الصوابِ من جانبَيْنِ

أوَّلهما : أنَّ النفائسَ التى ثمنُها مليارُ فرنكٍ ، لا مُقابَلَةَ بينها وبين مقدارِ العملِ الذى يتطلَّبُهُ إخراجُ بطاطا أو قمحٍ أو أَلْبِسةٍ أو أثاثٍ سَمجٍ بِمليارِ فرنكٍ ، لأنَّ المستنفِسَ لا يَنْظُرُ فى الثمنِ الى مقدارِ البِضاعةِ ولا الى مقدارِ العملِ بل الى جُودَةِ البضاعةِ وإتقانِ العملِ

مثالهُ أنَّ الهكتارَ من أرضِ « شاتُو لافيت» بفرنسا يَغِلُّ مِن خمسةَ عشرَ الى عشرينَ هكتولترَ نبيذٍ جيّدٍ ، يُباعُ الهكتولترُ منها بخَمسمائةٍ أو ستّمائةِ فرنكٍ ، فتكون جملةُ رَيْعِ الهكتارِ بين سبعةِ آلافٍ وخمسمائة فرنكٍ واثنَيْ عشرَ ألفَ فرنكٍ ؛ فلو استُخرِجت من كُرومهِ خمرٌ سُوقيّةٌ لَمَا بلغَ ثمنُها هذا المبلغَ ؛ بل لكان جُلُّ ما يُستطاعُ الحصولُ عليهِ أن يُستَغَلَّ من ذلك الهكتارِ أربعونَ أو خمسونَ هكتولتراً بدلاً من الخمسةَ عشرَ أو العشرينَ التى تُستغَلُّ اليومَ ؛ ولكان اذاً ما يُدرَكُ من الثمن ألفاً أو ألفاً ومئتَيْ فرنكٍ بدلاً من السبعةِ الآلافِ أو الاثنى عشرَ الألفَ

ومن هذا القبيلِ الصائغُ الماهرُ الذى يكسِبُ فى يومهِ خمسةَ عشرَ أو عشرين فرنكاً لإخراجهِ أشياءَ نفيسةً

فلَوْ أُلغيَ هذا النَّوْعُ من الإنتاجِ وكُلِّفَ ذلك الصائغُ بِصُنْعِ فِلزّاتٍ[1] ، لَمَا كانَ معقولاً أنْ يُخرِجَ من تلك

(١) فلزّات : « خردوات » كما سبق بيانه

الأَشياءِ المُبتَذَلةِ، ما يُعادلُ خمسةَ عشرَ أو عشرينَ فرنكاً بل لكانَ مُعظمُ ما يَكسبُهُ أربعةً أو خمسةً فرنكاتٍ

ويدخُلُ فى هذا الفريق أيضاً أُولئكَ المُتفنِّنُونَ البارِعونَ مِن النَّجَّارين : فإنَّ أَجرَ الواحدِ منهم خمسةَ عشرَ أو عشرونَ فرنكاً على ما يَصنَعُهُ من الأَثاثِ المَنْقوشِ ؛ فَلَوْ رَجَعتَهُ بهِ إلى النِّجارةِ العاديَّةِ لَمَا وَسِعَهُ أن يَكسِبَ منها فى يَوْمِهِ ما يُعادل كَسبَهُ ذاكَ ؛ وكذاك فى سائرِ المُستَنْفَدَاتِ الرَّاقيةِ

فالذى يشتريهِ المستنفِسُ بالثَّمنِ الغَالى إنَّما هوَ إِتقانُ العملِ، وإِبْدَاعُ الصَّانعِ أو المُتفَنِّنِ الذى لَوْ صُرِفَ إلى حِرْفةٍ غيرِ تلك، من الحِرَفِ السُّوقيَّةِ، لَمَا تَسَنَّى لهُ أن يُنتِجَ أكثرَ مِمَّا يُنْتِجهُ أَدنى المُمْتَهِنين

لهذا كانَ من الخطإِ زَعْمُهم، أنَّهُ إِذا أُلغِيَ من إِنتاجِ النفائسِ ما ثَمَنُهُ مليارٌ، استزادت الإِنسانيَّةُ من الأَشياءِ النَّافعةِ ما يُعادل ثَمَنُهُ ذلكَ المليارَ

يدخلُ فى الاحتِمَالِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عن الاستدراكِ

الذى سنَستدرِكُهُ فيما يَلى، أنَّ الإنسانيَّةَ لَوْ أرادت قَصْرَ حاجاتِها على الخُبْزِ ، واللحمِ، والنَّبيذِ السُّوقيِّ ، والالبِسةِ العاديَّةِ ، والأدواتِ الساذَجةِ ، لاستطاعت الحُصولَ من هذهِ الأشياءِ ، على مقاديرَ أعظمَ من التى تحصُلُ عليها الآنَ ؛ بمعنى أنَّهُ لو انصَرَفَ المُصوِّرون ، والنَّحَّاتُون[١] والنَّجَّادون[٢] والمُزَوِّقون[٣] والمُخَرِّماتُ[٤] والمُفوِّفاتُ[٥] وغَزَّالو الحريرِ ونَسَّاجُوهُ ، وصُناعُ العَجَلاتِ الفَاخِرَةِ ، ومُهيِّئُو الرِّيَاشِ المُتْقَنِ الخ ، عن حِرَفِهم هذه إلى خِدْمةِ الأرضِ ، وغَزْلِ القُطْنِ ، وحِياكةِ المِفْضَلاتِ[٦] ، لأنْتَجُوا فَوْقَ ما يُنْتَجَ الآنَ من السِّلَعِ الشائِعةِ التى يَعُدُّها أُناسٌ ضَرُوريَّةً لِلحياةِ دونَ سِواها

يدخلُ ذلكَ فى الاحتمالِ كما قَدَّمْنا ، ولكنَّهُ ليسَ إلاَّ

---

(١) النحاتون : Sculpteurs (٢) النجادون : Tapissiers (٣) المزوّقون : Décorateurs

(٤) صانعات المخرَّم (٥) المفوّفات : المطرّزات فى اللغة المتداولة (٦) المفضلات : البياضات كما شرحنا قبلاً

حَدْساً وتخميناً ؛ إذ لا شيءَ يُحقِّقُ أنَّ إبطالَ النفائسِ تتأتَّى عنهُ وَفْرَةُ الأشياءِ النافعةِ

وكأنَّني بأصحابِ هذا الزَّعْمِ ، لا يَحسِبونَ حِساباً للتأثيرِ المُضْعِفِ المُخَدِّرِ الذى يُؤَثِّرهُ فى هِمَّةِ الإنسانِ ، وفى فِطنتهِ المُبْدِئَةِ[1] وفى ذِهنهِ المُخْتَرِعِ ، تَشابُهُ العملِ واستمرارُهُ على وَتيرَةٍ واحدةٍ ؛ ولا يَتصوَّرونَ أنَّ المجتمعَ الذى يَمْتَهِنُ فيهِ الناسُ مِهْنَةً مُتَشاكِلةً ، ويعيشونَ عيشةً مُتماثِلةً ، تكونُ مَطالِبُهم محدودةً ، ولا يَطمَحُ[2] أحَدُهم بِنَظَرِهِ إلى مطمحٍ أسنى وأسمى ، من الأُفْقِ الذى تنتهى إليهِ آمالُ أقرانهِ ، لا مندوحةَ لهُ من السُّقوطِ فى وَهْدَةِ الجُمودِ ؛ حيثُ تَقِلُّ مُرونَتُهُ ويَضْعُفُ على التَّمادى نشاطُهُ فيَقِفُ حيناً من الدهرِ لا يتقدَّمُ ثمَّ يُفْضِى إلى النُّكوصِ والتأخُّرِ

---

(١) الفِطنة المبدئة : هى الحالة العقلية التى تحمل الإنسان على الشروع فيما تصوَّرهُ وقدَّرهُ Initiative (٢) يطمح : يَمُدَّ نظرهُ

وعندنا أنَّ إزالةَ النفائسِ مَجْلَبةٌ لتناقُصِ المستنفداتِ السُّوقيَّةِ مع طولِ الزَّمَنِ فضلاً عمَّا يَعْدُو[1] ذلكَ مِن الخُسرانِ

إبطال النفائس يُضيّقُ مجالَ التقدمِ الاجتماعيِّ

تأتَّى النجاحُ فى أكثرِ أمرهِ من مجهوداتِ أُناسٍ تفوَّقوا على غيرِهم ، ذكاءً وعزيمةً ؛ وكانَ فى طَليعةِ البواعثِ لهم على إبداعِ ما أبْدَعوهُ ، رَغْبَتُهم فى المكافآتِ الحِسيَّةِ ولا مُشاحَّةَ فى أنَّ خيْرَ تلك المُكافآتِ ، الثروةُ ؛ كما لا مُشاحَّةَ فى أنَّ الثروةَ تَفقِدُ مُعظمَ قيمتِها لَدَى فِئةٍ كبيرةٍ من العِبادِ إذا لم تُمكِّنهم من الاستمتاعِ بالنفائسِ التى يشتهونها

نعم إنَّ من المخترعين ، ومن كبارِ المستحدثين وكبارِ أربابِ المصانعِ ، مَنْ سَمَا خُلُقُهُ فاكتفى بخدمةِ الإنسانيَّةِ وَبِما يعودُ عليهِ من حُسنِ السُّمْعةِ ، جزاءً وِفاقًا لِمَتاعبهِ

---

(١) يعدو : يتجاوز

المتَّصِلةِ ، ومَباحِثِهِ النَّاصبةِ ؛ إلاَّ أنَّ بجانب هؤُلاءِ رِجالاً آخرين ذوى هِمَّةٍ ، وكَفاءَةٍ ، ومقدرةٍ ، لا تمتدُّ آمالُهم إلى ذلكَ الأُفْقِ البعيدِ بل قد تجتذِبُهم مطامِعُهم ، إلى التَّنعُّمِ بالنفائسِ ، أكثرَ مِمَّا تجتذِبُهم الى التَّنعُّمِ بما يَسُرُّ الخاطرَ ويُرضى الشَّرَفَ الرَّفيعَ

قد يكونُ المَيْلُ الى النفائسِ من النَّزَقِ والكَلَفِ بالأباطيل ؛ فَلِحِكمةٍ أن تقضِيَ عليهِ وتُنكِرَهُ ؛ غيرَ أنهُ لا يبرَحُ ، فى الغالبِ مِن الأمرِ ، خَيْرَ ما يُقالُ [1] بهِ الضُّعْفُ الإنسانيُّ من عثْرَتِهِ

رُبَّما بَدَا لِقَوْمٍ أنَّ لِبْسَ النساءِ لِلخَزِّ ، وتقلُّدَهُنَّ قَلائِدَ الماسِ واللُّؤْلُؤِ ، وتبوُّأَهنَّ [2] أرائكَ العَجَلِ الفَواخِرِ لِلتَّنقُّلِ فى الأماكنِ المتقاربةِ ، كلُّ أولئك من الأحوالِ التى لا فائدةَ لها

لكنْ ما القَوْلُ فى فريقٍ من الناسِ يُعانونَ

---

(١) يقال من عثرتهِ : أى يُقام ويُنهض (٢) التبوُّء : الإقامة بالمكان

المَشَقَّاتِ، ويُغامِرون الأخطارَ، ويبتكِرُون ما لا يَخطُرُ على بالٍ، ويَخلُقونَ الصِّناعاتِ النافعةَ لِلعالَمِ بأسرِهِ، لِيَجلِبُوا الى نِسائهم وبناتِهم تلك الخَيْراتِ، ولِيَستمتِعُوا بما ينالُهم من رِضَاهنَّ عنهم؛ فَلَوْ أُريدَ من أولئك الرِّجالِ أن يَقِفُوا عند الكَفافِ لأَراحوا أنفُسَهم من العناءِ والمغامَرةِ

فَمِنَ اليقين أنَّ المجهوداتِ الاستثنائيَّةَ الفائقةَ، التي يَبْعَثُ على بَذْلِها حُبُّ النفائسِ، تزيدُ القوَّةَ المنتِجةَ في الإنسانيَّةِ زيادةً تعودُ منها عائدةٌ كبيرةٌ، حتى على الأشياءِ الضَّرُوريَّةِ

لَيست مسألةُ النفائسِ، إلاَّ مَظْهَراً من مظاهرِ مسألةٍ أوْسَعَ منها وأعَمَّ: مسألةِ التفاوُتِ بين الناس

ولقد ثَبَتَ أنَّ تَساوِيَ الطبقاتِ لو تَحقَّقَ في مُجتمَعٍ، لَثَبَّطَ فيهِ الهِمَمَ، وعادَ بأهلِهِ الى النُّعاسِ الفِكريِّ، والحِرمانِ الحِسِّيِّ، الذي عاشت فيهِ شُعوبُ الأزمنةِ الأُولى فإذا مُنِعَتْ النفائس كانت النَّتيجةُ في هذا الحدِّ من الجسامةِ أو دونَهُ بِقَليلٍ

فليأخُذ الدِّينُ وأدَبُ النَّفْسِ ما يأخذانهِ على الإفراطِ في النفائسِ ، وتجاوُزِ الاعتدالِ في استعمالِها ؛ وَلْيَجْهَدَا ما يَجْهَدَان لإزالةِ تلك القِحةِ التي يتظاهرُ بِها المُفاخِرُون بما عندهم ؛ ولْيُعَلِّمَا الناس ويُرشِدَاهم ما يستطيعان إلى تَوَخّي الغاياتِ المعنويَّةِ العُليا ، وتَرْكِ هذه السَّفَاسِفِ الدُّنيا

ذلك خَيْرُ ما يَعْمَلان

إلاَّ أنَّهُ ما دامَ الطَّبْعُ البَشَرِيُّ لم يُغَيِّرْهُ الدِّينُ ولا الحِكمةُ في السوادِ الأعظمِ من الخَلْقِ ، فَمِنَ الخطإِ الأساسيِّ ، في جانبِ الاقتصادِ ، أن يُعْمَدَ إلى إبطالِ النفائسِ (١)

---

(١) يجدر بالاستدراك في هذا المقام أن التقدم بأنواعه والثراء باتساعه ، منذ ختام القرن التاسعَ عشرَ ، قد دفعا الأغنياء في تيارٍ شديدٍ من التبذيرِ والتبديدِ ؛ وأن روح التشبهِ والمحاكاةِ ، ذلك الروحَ المتفشيَ خصوصاً في الطبقة غير الموسرة من الناس ، قد حملها على ابتغاء أشياء كماليةٍ لا فائدةَ لها منها بقصد التظاهر والمباهاة ذلك ، ولا ريب ، مرضٌ اجتماعيٌّ لكنهُ لا ينقضُ الملحوظات الاقتصادية التي قدمناها